قراءة في مبادىء فلسفة نيتشه

*نهلة محمود علي الزق الجمزاوي**

ملخّص

هدفت الدراسة إلى مناقشة أبرز ملامح فلسفة نيتشه، وإلقاء قدر من الضوءِ على ثورته الجينيالوجية التي أدّت إلى قلب القيم وزعزعة الجذور الدينية والميتافيزيقية التي اتكأت عليها الأخلاق، والتخلص من الثوابت والمسلمات التي جمّدت الإرادة الإنسانية وأدّت إلى العدمية ونفي الحياة.

وعرضت الدراسة لأبرز الأسس الفلسفية لنيتشه التي نتجت عن بحثه في أصل الأخلاق وفصلها مؤولاً وناقداً، ليصرخ عالياً بمبادئه الأساسية متمثلة في: "الأوبرمنش" الإنسان المتفوق، وإرادة القوة، والعود الأبدي. ثم ناقشت موقف نيتشه من بعض القيم الحياتية المتأثرة برؤيته الفلسفية الجديدة كموقفه من الحياة والموت، ومن الخير والشرّ، والمرأة، والأدب، والفن...الخ. تلك الفلسفة النارية الصادمة التي أثر على عدد كبير من مفكري وفلاسفة عصر النهضة وأسهمت في إرساء الجذور الفكرية لمرحلة ما بعد الحداثة.

الكلمات الدالة: نيتشه، أوبرمنش، الرجل الأخير، إرادة القوة، الإنسان الأعلى، زرادشت.

المقدمة

استطاع نيتشه أن يحدث ثورة نقدية جريئة في عالم الأخلاق، قام من خلالها بزعزعة الجذور التي اتكأت عليها فكرة الأخلاق ومرجعياتها الميتافيزيقية، والدينية، والعدمية بعد أن عمل على تأسيس قيم دنيوية بشريّة، ترفع من شأن الإنسان، إذ أراد إعادة تقويم القيم جميعاً، والقيام بثورة جينيالوجية عليها، أي بمعاجة أصل وفصل الأخلاق بعيداً عن أيّ ارتباط ديني أو ميتافيزيقي، فالقيم والفضائل بالنسبة له ليست سماوية متعالية، بل هي لصيقة الواقع الأرضي المعيش، لذا نجده يردد: "قل: ما أُحبّ سوى فضيلة هذه الأرض" (نيتشه، 1996). ومن ثمّ أراد نيتشه أن يضع الإنسان وجها لوجه أمام حقيقته المادية والجسديّة. ليصنع هو بنفسه حياته التي تناسب إرادته، ودفعه ليستنفر كلّ طاقاته العقلية والجسديّة والروحيّة، لينتج أخلاق القوة التي تليق بالإنسان المتفوّق القادم على بساط إرادة القوة. "لقد تجلى بهاء الإنسان المتفوق لعيني في هذا الخيال الطارق فمالي وللآلهة بعد" (نيتشه، 1996).

وفي اعتقادي أنّ نيتشه شكّل علامة فارقة وانعطافة كبيرة في تاريخ فلسفة القيم وربط مسألة القيم والأخلاق بإرادة القوة ومنهج النقد الدائم المتجدد، وقد حظي نيتشه باهتمام بالغ من قبل الباحثين والفلاسفة والأدباء والفنانين... ومنهم من عارضه بقسوة. وهناك من شغف بفلسفته وتفاعل معها.

إنّ فلسفة نيتشه النارية الصادمة واسعة ومتشعبة. تناولت معظم تفصيلات الحياة، وإنه لمن المتعذّر أن نحيط بها في هذه العجالة البحثية، لذا حاولت هذه الدراسة أن تتناول أبرز البنى الفكرية التي اشتبك معها نيتشه بالنقد والنقض، وكذلك أبرز القيم التي أسس لها بمفرداته ومصطلحاته الخاصة.

فبماذا جاء نيتشه؟ وأيّ أفكار تلك التي جعلته يصرّح بقسوة فلسفته، ويتنبأ بشدّة نزولها كالصّاعقة على الأسماع فيتوقع أنّها ستجد من يعاديها ويقول: "وأنتم أيها الصّحاب، سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتي الكاسرة، ولعلكم تولون هاربين منها كما يهرب الأعداء". وما هي تلك الصيغ والمبادىء الغرائبية

* طالبة دكتوراه فلسفة، الجامعة الأردنية.

تاريخ استلام البحث 2016/8/4 وتاريخ قبوله 2017/3/26.

© 2017 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

التي أحدثت جدلاً واسعاً في الأوساط الفكريّة والفلسفيّة الأوروبيّة والعالميّة وأثّرت على عدد كبير من فلاسفة عصر النهضة ومفكريه وأدبائه وأسهمت في إرساء جذور ما بعد الحداثة؟

فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) (1844–1900م)

أولاً: حياته:

على الرغم من طفولته الدينية الملتزمة بوصفه قسيساً صغيراً، إلا أنّ نيتشه كان يتمتع بقوّة روحيّة عظيمة، وإرادة تدفعه نحو السموّ والرفعة على الدوام، ولم يتوقف عن البحث عن السّبل الداعية إلى تطوره جسديّاً وعقلياً، لتجعل منه الرجل المثالي، الذي يطمح إلى تحقيقه، في ذاته، وفي الآخرين.

فما أن بلغ الثامنة عشرة حتى فقد الإيمان في إله آبائه القساوسة، وظلّ طيلة حياته يبحث عن وسيلة للخروج من مأزق (موت الله)، لم يرتأِ تحقق ذلك إلا فيما أسماه لاحقاً ب"السوبرمان" الإنسان الأعلى.

التحق نيتشه بجامعة "بون" في 1863م، ثم انتقل إلى "جامعة لايبزغ"(Leipzig University) ليدرس اللّغويات والآداب الكلاسيكية، "وأخذ ينصرف عن اللاهوت، بعد أن كان في الأصل ينوي التخصص فيه". (زكريا، 1956).

وفي الثالثة والعشرين من عمره، انخرط في الخدمة العسكرية على الرغم من ضعف بصره وكونه وحيداً لأمه، وغادرها عليلاً بعدما سقط عن جواده، وعاد إلى بلده منهاراً، إلا أنّه ظلّ يقدس الجنديّة، مما أثّر في فلسفته لاسيما إرادة القوة.

وتميّز في الجانب الأكاديمي وبرز نبوغه في سنٍّ مبكرة أي في الرابعة والعشرين من عمره، ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة، وأصبح مدرساً لأصول اللغة القديمة في جامعة "بازل" (Basel State University). ثم تعرف إلى الموسيقار الألماني الكبير "رتشارد فاجنر" (Wilhelm Richar Wagner) وتأثر به، فألف أوّل كتاب له، وهو "مولد المأساة من روح الموسيقى" وكان من وحى فاجنر والفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) (1788–1860م) والذي اتخذه معلماً، ثمّ اختلف مع فلسفته، فيما بعد (طرابيشي، 1987).

بعد أن اعتزل، نيتشه الناس عام 1870م، وأقام فوق جبال الألب ليتفرّغ للكتابة، وعندما نشبت الحرب 1870بين ألمانيا وفرنسا، فحاول نيتشه أن ينخرط في الحرب لكن وضعه الصحيّ لم يؤهله لذلك فانخرط في تمريض الجيش، وحدث أن شاهد فريقاً من الجنود الفرسان يسيرون عبر مدينة فرانكفورت، في رهبة وعظمة وجلال، فلمعت في رأسه فكرة تمجيد الحرب بوصفها الوسيلة الوحيدة لتحقيق إرادة القوة، والسيادة. وظلّت هذه الفكرة أساساً لفلسفته كلّها. "تقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب. أما أنا فأقول لكم: "إنّ الحرب المثلى، تبرر كلّ غاية. فقد أتت الحروب والإقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس، وما أنقذ الضحايا حتى الآن، إلا إقدامكم لا إشفاقكم" (نيتشه، 1996). وعلى الرغم من عمله في تمريض الجرحى في الجيش، إلا أنّ نفسه ظلت تصبو لحياة الحرب.

أصيب نيتشه بانهيار صحي عام 1879 عندما كان في سنّ الخامسة والثلاثين وشارف على الموت حتى أوصى أخته، أن تعده بألا يقف حول جثمانه أحد من القساوسة، فيتلو عليه الأباطيل. وبسبب ضعفه الصّحيّ، اضطر إلى الاستقالة من الجامعة والتفرغ إلى للكتابة.

تحسنت صحّة نيتشه، وانطلق من وعكته إلى الضحك والرقص والموسيقى والفنّ وحبّ الحياة، متمتعاً بإرادة قوية تدفعه لتحدي الضعف ومقاومة الألم. ثمّ عاد إلى التأليف فأصدر عدد من الكتب التي جمعت بين الفلسفة والأدب بلغة شعرية غريبة صادمة في مقدمتها "الفجر"، و"العلم المرح" 1881م، ثم بروائع كثيرة من أبرزها هكذا تكلم زارادشت، والعلم المرح، ومولد التراجيديا من روح الموسيقا، والفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، وعدو المسيح، وأفول الأصنام و"هذا هو الإنسان"، الذي عرض فيه لخلاصة كتبه التي عكست تجربته وإعجابه الشديد بنفسه على الرغم من دعوته الدائمة للانقلاب على الذات والتجاوز نحو الأعلى.

ووصل المرض أوجه فانهار صحيّاً وفقد رشده تماماً وضعف بصره، وكتب رسائل لأصدقائه، بدأ فيها جنونه واضحاً، فأرسلوه إلى مصحٍّ عقليّ، إلا أنّ أمه العجوز أخذته لترعاه، ثم توفيت فآلت رعايته إلى أخته التي رعته حتى توفي 1900م. وقد ترك نتاجاً فلسفياً وأدبياً وجد أهميته في سنوات لاحقة.

ثانياً: فلسفة نيتشه:

استطاع نيتشه أن يجرّ الفلسفة من عليائها لتصبح فلسفة

أرضيّة عمليّة تمسّ الإنسان وتفاصيله الحياتية، لذا وجّه معوله نحو أسّس الأخلاق منقباً وقالباً لكلّ الثوابت الميتافيزيقية. فهو يؤمن بأنّ "أصل معرفتنا أخلاقي، نحن نريد أنْ نعرف لكي تزداد سيطرتنا على الأشياء، ولكي نكسب مزيداً من القدرة على السّلوك في الحياة، وتلك كلها أمور تدخل في باب الفعل العملي، لا الفكر النظري" (إمام، 1985).

وبالتالي قامت جينيالوجيا نيتشه على النقد لكلّ العلوم والفنون والآداب والسياسة متطرقاً إلى نقد الحداثة. فيقول عن كتابه جنيولوجيا الأخلاق "هذا الإنسان": "إن هذا الكتاب هو نقد للحداثة، بما في ذلك العلم الحديث، والفن الحديث، بل حتى السياسة الحديثة" (نيتشه، 2005)، إذ توجه بنقده اللاذع مخترقاً كلّ التابوهات ومتجاوزاً كلّ مقدس: "إننا بحاجة لنقد القيم الأخلاقية وإنّ قيمة هذه القيم ينبغي أن تطرح، قبل كلّ شيء، على بساط البحث" (نيتشه، 2006). لذا قام نيتشه بعملية الهدم والبناء مبتدئاً بقتل الله وقلب القيم بعد الغوص في أصلها وفصلها. "في الواقع، إننا، نحن الفلاسفة، نحن، "العقول الحرة"، عند سماع خبر أن الإله (الله) القديم قد مات، نحسّ وكأن أشعة جديدة قد لمستنا.. يفيض قلبنا بالدهشة، بالتوجس، بالانتظار" (نيتشه، 1993).

إن نيتشه، بحسب دولوز: "هو أول من علّمنا بأنه لا يكفي قتل الله لإحداث تحويل القيم" (دولوز، 1998). فنيتشه يرى أن الإنسان، بعد أن يقتل الله، يتحرر من الحاجة إلى سلطة خارجية. فالقيم عبر التاريخ هي ابتداعات إنسانية، قدّسها وأعلى من شأنها، حتى بدت وكأنها موجودات في ذاتها، وكانت تعبيراً عن الوضع الفيزيولوجي للجماعات البشرية، وفي بعض الأحيان تعبر عن قيم انحطاط تتناقض مع الطبيعة والحياة وتؤدي إلى العدمية. ويشير دولوز إلى معنى هذا النوع من العدمية بقوله: "إن الشفقة تقنع بالعدم، والناس لا يقولون "العدم" إنهم يضعون (مكان هذه الكلمة) "الآخرة"، أو "الله"، أو "الحياة الحقيقية"، أو النيرفانا، الخلاص، الغبطة... هذه البلاغة البريئة، التي تدخل في حقل المزاج الخاص الديني والأخلاقي، سوف تظهر أقلّ براءة بكثير ما أن نفهم أنّها النزعة التي تتدثر هنا، برداء من الكلمات المهيبة: عداوة الحياة" (دولوز، 1998). هنا يظهر دور الإرادة، في عملية الهدم والتطهير، للأسس التي نبتت منها تلك القيم، ومن ثمّ التعامل مع الوجود بنظرة دنيوية بعيدة عن الميتافيزيقيا والدين.

إلا أنّ نيتشه يحذّر من عدميّة أخرى جديدة وهي مرض أصاب الحضارة الأوروبية نتيجة قتل الله، وتتمثل هذه العدمية في بقاء الإنسان أسيراً لظلّ الله الذي بقي قابعاً في تفاصيل حياة الإنسان رغم موته.

تلك هي العدمية التي خشيها نيتشه وحذّر منها. إنّها الناتجة عن التشبث بظلّ الله، وبجثمانه بعد مقتله مما يشلّ الإرادة الإنسانية ويجرد الحياة والعالم من قيمتيهما: "بعد أن مات بوذا أظهر ظله في مغارة طيلة قرون، وكان ظلاً رهيباً ومخيفاً – مات الإله: لكن هذه طبيعة الناس، بحيث ستكون هناك، ربما طيلة ألفيات، مغارات يعرض فيها ظله –أما نحن– فيجب علينا أن نهزم ظلّه كذلك" (نيتشه، 1993)، ذاك الظلّ الذي يدفع بنا إلى العدميّة حيث الوهن الحضاري وهزيمة الإرادة وتردي الإنسان.

مبادىء فلسفة نيتشه:

وتجاوزاً للسقوط في جبّ العدمية، أسّس نيتشه لثلاثة مبادىء ارتكزت عليها فلسفته الأخلاقية وهي: ("الأبرمنش" الإنسان المتفوق – إرادة القوة – العود الأبدي).

1- السوبرمان"الأوبرمنش"، "الإنسان الأعلى"، الإنسان المتفوق":

الإنسان الأعلى هو المخرج من العدمية الذي يردّ الاعتبار لقيمة الحياة، ويقود دفتها ويسيطرعليها. وهو الكائن غير المتحقق بعد، والذي بشّر نيتشه بقدومه على لسان إنسانه المتفوق زارادشت بعد حواره مع الناسك في الغابة: "إنّه لأمر جدّ مستغرب، ألا يسمع هذا الشيخ في غابة، أنّ الله قد مات"؟ (نيتشه، 1996) ويواصل متحدياً سخرية من حوله من العدميين: "إنني آتٍ إليكم بنبأ الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه، فما أعددتم للتفوق عليه؟" (نيتشه، 1996).

تلك هي رسالة نيتشه التي كررها في أكثر من موقع من كتاباته ليؤكد أهمية إنسانه المتفوق أو سوبرمانه الجديد: "لقد ماتت جميع الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق. فلتكن هذه إرادتنا عندما تبلغ الشمس الهاجرة" (نيتشه، 1996).

إذن يصبح الأبرمنش هو المحرك الفعلي للحياة، ويرمز إليه نيتشه "بزارادشت" (Zarathustra)، بطل كتابه الشهير "هكذا تكلم زرادشت".

ويصرّح بذلك فيقول: "إذا كان هناك آلهة، فكيف أطيق أن لا أكون الله زارا توسترا" (نيتشه، 1974). فيما يترجمها فليكس فارس في هكذا تكلم زاراداشت: "لو كان هنالك أرباب أكنت أحتمل ألا أكون رباً؟ إذن ليس في الكون أرباب. لقد استخرجت لذاتي هذه النتيجة وها هي تستخرجني الآن (نيتشه، 1996).

يتعامل نيتشه مع الإنسان بوصفه جسداً خالصاً، وما الروح والعقل إلا جزء من هذا الجسد.

يقول: "إنني بأسري جسد لا غير، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد... ما الجسد إلا مجموعة آلات مؤتلفة للعقل، فهو القطيع وهو الراعي" (نيتشه، 1996)، نابذا ثنائية الروح والجسد بوصفهما "لعنة رزحت على الفلسفة منذ أفلاطون" (نيتشه، 1996). وباحتفائه بالقيمة الفزيولوجية للجسد، يحتفي بما يتعلق بها من غرائز وشهوات قهرتها الأديان وحقّرها المتشائمون، واعتبر أنّ "العفة والنزاهة لهؤلاء المتشائمين ليست سوى قناع، لتغطية كلاب الشهوة الموجودة عند الجميع.." (نيتشه، 1996). وهذا لا يعني أنه دعا إلى غرائز حيوانية بلا ضوابط. بل نجده يقول: "ما أنا أشير عليك بقتل حواسك، إن ما أوجبه إنما هو طهارة هذه الحواس" (نيتشه، 1996). فالإنسان الأعلى بالنسبة له هو روح الأرض وأسمى ما فيها. "إنه من الأرض كالمعنى من المبنى.." (نيتشه، 1996).

الأوبرمانش والموت:

ويعترف نيتشه بالموت بوصفه ظاهرة طبيعية ويرى أنّ "للوجود مظهرين: الموت والحياة" (نيتشه، 1996)، لكن الموت النيتشوي يتحقق للأوبرمنش بشرطين: "إن من أكمل عمله يموت ظافراً... ولكن اعلموا أنّ لا ظفر لمن يموت، إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء بإتمامه... تلك هي الميتة الفضلى، تليها في المراتب ميتة من يسقط في المعركة، وهو ينشر عليها عظمة روحه" (نيتشه، 1996).

ويتغنّى نيتشه بالإنسان المتفوق ليعده الهدف الوحيد المشروع للتاريخ ويعتبر أنّ "في الإنسان اتحد المخلوق والخالق، في الإنسان خامة وزوائد، وطين ووحل وسخف. لكن في الإنسان، أيضاً، خالق وصانع قسوة خارقة، وألوهة متفرجة" (نيتشه، 1999).

الأبرمنش والأخلاق:

نجد أنّ ما سعى إليه نيتشه هو تخليص الإنسان الأوروبي من الميتافيزيقية الغيبية، وربطها بهدف الوصول إلى الإنسان الأعلى. يقول: "حيثما تبصرون مثلاً أعلى، لا أرى سوى أشياء إنسانية مفرطة في إنسانيتها" (فنك، 1974)، بمعنى أن الإنسان الأعلى ينبثق عن الإنسان ذاته وليس خارجاً عنه. فهو طريقة جديدة في الحياة، تنبذ أوهام الضعف التاريخية منذ أفلاطون مروراً بالمسيحية وحتى ليبرالية القرن التاسع عشر، التي أفرزت فالأخلاقية والخير والشّر. "ألم يبلغ بنا الأمر اليوم ضرورة العزم، مرة أخرى، على ضرورة قلب القيم، وتحويل أساسها، بفضل استفاقة جديدة للذات، وتعميق جديد للإنسان" (نيتشه، 1999).

الخير والشر

يؤكد نيتشه أنّ قيم الخير والشّر هي من صنع البشر، ولم تكن فوقية خارجية... فالإنسان يخلق القوانين ويسنّ الشرائع ويفرضها على نفسه. "لقد أقام الناس الخير والشّر لأنفسهم وما اكتشفوهما ولا أنزل عليهم بهاتف من السماء" (نيتشه، 1996). ويرى نيتشه أن فكرة الخير والشّر مرتبطة بطبقة العبيد الذي لا يخفي مقته إياها وأنّ العبيد استطاعوا فرض هذا على السادة لكن السادة في جوهرهم يميلون صوب فكرة الجيد والسيء عوضاً عن الخير والشّر. وكذلك فإن الخير والشرّ كباقي القيم نسبية ومتغيّرة لأنها أصلا من صنع الإنسان.

"ليس على الأرض من شعب تحلو له الحياة دون أنّ يخضع النظم والسنن لتقديره، وإنّ كلّ شعب يرى من واجبه، إذا أراد الحياة، أن يجيء بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب، وهكذا كان ما يرى أحدهما خيراً، يراه الآخر دناءة وعاراً... فكم من عمل اتّشح بالعيب في بلد، رأيته مجللاً بالشرف والفخر في بلد آخر" (نيتشه، 1996).

وكذلك يؤكد عدم ثبات الخير والشرّ وضرورة التغيير الدائم إذ يرى "إنه ليس هنالك من خيرٍ دائم وشرٍّ دائم، لأن على الخير والشرّ كليهما أن يندفعا أبداً إلى التفوق والإعتلاء... فمن أراد أن يكون مبدعاً، سواء أكان في الخير أم الشّر، فعليه أن يبدأ

بهدم ما سبق تقديره، وبتحطيمه، وهكذا فإن أعظم الشرّ، يبدو جزءاً من أعظم الخير، ولكن هذا الخير لم يعط إدراكه إلا للمبدعين" (نيتشه، 1996).

فالأبرمنش، بوصفه الهدف المشروع للإنسان، هو المسؤول عن تشكل تلك القيم وإرساءها وحتى تجاوزها وتبديلها متى شاء وبما تملي عليه صيرورة الحياة، "الحقيقة هي أننا نحن أنفسنا في نمو، نخلع عنّا قشوراً بالية في تغيير دائم، نكسب جلداً جديداً كل ربيع" (نيتشه، 1993).

الأبرمنش وقيم السادة والعبيد:

يميّز نيتشه بين نوعين من الأخلاق، كرستها قيمة الغلبة والمغلوب على مدّ التاريخ، "هناك أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد، وقد تولد التمييز بين القيم الأخلاقية، إما من صلب جنس غالب، أدرك بالتذاذ امتيازه عن الجنس المغلوب، وإما من صلب المغلوبين العبيد والأتباع، على مختلف الدرجات" (نيتشه، 1999).

واستناداً إلى تحليل سيكولوجي، يفترض نيتشه أنّ النبيل لا يمكن أن يتصف بالرحمة التلقائية، بل إنّ "الإنسان النبيل، يسعف البائس ولكن نادراً ما يكون ذلك بدافع الرّحمة، بل بالأحرى، باندفاع يتولد من فيض السلطان... "(نيتشه، 1996). وكذلك يرصد نيتشه القيم الناتجة عن سيكلوجيا العبيد فيقول: "فلنفرض أنّ المغتَصَبين والمقموعين والمتألمين واللاأحرار واللاواثقين من أنفسهم والمتعبين يؤخلقون، فماذا عسى أن يكون المشترك في كل تقييماتهم الأخلاقية؟ يغلب على الظّن أنّه سيكون التعبير عن ارتياب متشائم من وضع الإنسان ككل، وربما عن استنكار للإنسان ووضعه برمته، فنظرة العبد تضيق بفضائل صاحب القدرة" (نيتشه، 1996).

وتمثل المسيحية برأي نيتشه أخلاق العبيد، لما تكرّسه من ضعف للإنسان وتهميش لدوره وإرادته ونفياً للحياة و"هذا ما أدركته الكنيسة: فقد أفسدت الإنسان وأضعفته، لكنها ادعت أنها أصلحته" (نيتشه، 1996)، كما جردته من أخلاق البطولة الاسبرطية القائمة على مبدأ القوة، أبرز روافع الإنسان الأعلى، ومن ثمة كانت "المسيحية قلب لكل القيم الآرية، انتصار لقيم المنبوذين، بشرى يبشر بها المتواضعون والفقراء، ثورة المداسين والتعساء والمشوهين والمخفقين العامة ضد السادة. "إنها انتقام المنبوذين الأبدي، مقدماً كدين المحبة" (نيتشه، 1996).

وكذلك يعتبر نيتشه الثورة الفرنسية ثاني انتصار لأخلاق العبيد، بعد اليهودية والمسيحية، وذلك لما أحدثته من إطاحة بالنبلاء والفرسان، لصالح فكرة الديمقراطية والعدل والمساواة بين البشر. يقول: "أحدثت يهودا انتصاراً جديداً على المثل الكلاسيكية مع حدوث الثورة الفرنسية، عندئذ تهافتت آخر معاقل النبلاء السياسيين التي كانت ما تزال مقروءة في أوروبا" (نيتشه، 1012).

الرجل الأخير:

إن التقدم بالحياة يستلزم إرادة القوة الصريحة التي تقاوم إرادة العدم النافية التي تقود إلى أقصى درجات التردي والانحطاط، المتمثلة في العدمية.. لذا، يؤكد نيتشه على أنّ إنسانه المتفوق وهو الذي يؤمن بضرورة هدم الأخلاق التقليدية السائدة، وانطلاق إرادة القوة الصريحة، ونقيض الإنسان المتفوق هو الرجل الأخير.

فمن هو الرجل الأخير:

إنه الإنسان الذي أصابه التعب الحضاري فصار كره الصراع واستسلم للراحة في ظلّ رتابة الحياة، فأصبح بلا معنى ولم يعد يسهم في دفع عجلة الحياة إلى الأعلى، لذا يصفه نيتشه بأقبح الأوصاف وأحطّ التشبيهات فيقول: "وستصغر الأرض في ذلك الزمان فيطفو على سطحها الرجل الأخير الذي يحول إلى الحضارة كل ما يدور به، إن سلالة هذا الرجل لا تباد، فهي أشبه بالبراغيث، والإنسان الأخير أطول البشر عمرا" (نيتشه، 1996).

ويتوقع نيتشه أن يواجهه من يخاطبهم بالسخرية وعدم اكتراثهم بالأمر ويتوقع أن يكون ردهم عليه: "إلينا بهذا الرجل الأخير يا زارا، اجعلنا على مثال أناسي الزمن الأخير، فقد تخلينا لك عن الإنسان المتفوق" (نيتشه، 2006).

ويحذر من غرور بعض عظماء عصره وظنّهم أنّهم وصلوا مرتبة الإنسان المتفوق، فهو لا يجد من بينهم من وصل إلى مرتبة الإنسان المتفوق التي ينشدها نيتشه، لذا يسخر منهم قائلاً: "ما كنتم تنشدون سبل الحريّة أيها الأخوة، فعليكم أن تنتقدوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمةً ومجداً. فإن الإنسان المتفوق لم يظهر على الأرض بعد" (نيتشه،

2006). ذلك أن اشتراطات ظهور الأبرمنش لم تتحقق بعد وأبرزها إرادة القوة.

2- إرادة القوة:

بعد قلبه لقيم الضعف والانحطاط وحتى لا يقع في جبّ العدمية، قام نيتشه بوضع المبدأ البديل القابل لاستيعاب شروط الوجود باتحاد القوة بوصفها قانوناً فيزيائياً، مع الإرادة بوصفها قانوناً سيكولوجياً، ليصنع منهما مركباً خاصاً هو "إرادة القوة"، ليشكل الطاقة المحركة للأبرمنش، بل والمحور الرئيس الذي دارت حوله فلسفة نيتشه برمتها. يقول: "إن طموح إرادتي إلى الإيجاد يدفعني أبدا نحو الناس اندفاع المطرقة فوق الحجر" (نيتشه، 1996).

ساوى نيتشه بين إرادة القوة والوجود ليشرك الإنسان في فعل الإيجاد (الخلق) "لأنه رأى أنّ إرادة القوة هي جوهر الوجود، وعن طريقها يمكن تفسير كل مظاهر الوجود. فليس الوجود إلا "الحياة".. وليست الحياة إلا "إرادة"... وليست هذه الإرادة إلا "إرادة القوة" (بدوي، 1965). يقول نيتشه: "تريدون أن تجعلوا كل ما هو موجود ممكن التصور..ها هنا تكمن إرادة قوتكم، حتى حينما تتحدثون عن الخير والشّر وأحكام القيمة" (بدوي، 1965).

وعلى الرغم من ثورية أفكار نيتشه إلا أنه لم يطالب بالتطور أو الحضور المفاجيء لإرادة القوة. "فنيتشه لا يقفز من فكرة إلى أخرى، بل يبحثها انطلاقا مما ورد قبلها" (فنك، 1974). وبالتالي يقدمها لنا ممرحلة عبر تشبيه أدبي رمزي جميل: "لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة، فأوضحت كيف استحال العقل جملاً، وكيف استحال أسداً، وكيف استحال أخيراً طفلاً "ذلك لأن الطفل طهر ونسيان، لأنه تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية، وعقيدة مقدسة" (نيتشه، 1996).

فإرادة القوة دائمة التطور تنقلب على ذاتها باستمرار، لذا يجعل نيتشه من الطفل ولادة جديدة للعقل ولكن من موقع قوة تجسدت من انتهاء الأسد أي لم تنطلق من فراغ أو ضعف.

"إن الإنسان وقد تحول، الإنسان الذي أصبح طفلاً، هو الإنسان الخلّاق، إنه الإنسان الأصيل والأساسي ولا يقصد نيتشه بالخلّاق الإنسان العامل، بل الإنسان الذي ينجب، وهو يلعب، والذي يخلق قيماً، الذي يريد ويتمتع بإرادة كبيرة، والذي يرسم لنفسه هدفا، ولديه الشجاعة في خلق جديد" (فنك، 1974). ويربط نيتشه القوة بكافة القيم الأخرى كالخير والشرّ والفضيلة والسعادة "ما هو الخير، إنه ما يربي الشعور بالقوة، والقدرة ذاتها داخل الإنسان. ما هو الشرّ؟ إنه كل ما يتأتى عن الضعف. ما هي السعادة؟ الشعور بأن القوة تتنامى، وأن المقاومة تتجاوز" (نيتشه، 2006).

إذن إرادة القوة الصريحة هي الكفيلة بفرض التطور والتجاوز والانقلاب على الذات من أجل خلق الأبرمنش، لكن هذا التجاوز لا يطال الشهوات والزهد ولا يعني تحقير الذات "وليس الانتصار على الذات بالمفهوم النسكي، فهو على العكس تماماً، إنه الانتصار الذي يحتفي بالحياة ومتعها الجسدية والمعنوية، فهو يرى: "إن نزعة الحياة في الصعود، فهي تخلق أشكالاً من القوة، دون أن تبلغ قطّ إلى الراحة... تشبه بالأحرى برجاً عظيماً لا ينفك يتعالى، إذ يضاف طابق جديد إلى الطوابق القديمة، دونما انقطاع، فتصبح كل مرحلة نقطة انطلاق لبداية جديدة") (فنك، 1974) ومن فإن إرادة القوة تتحقق في ديمومة الصراع الذي لا يتوقف عند حدّ الغلبة فقط. "ولا إرادة إلا حيث تتجلى حياة، ومع هذا فإن ما أدعو إليه إن هو إلا إرادة القوة لا إرادة الحياة" (نيتشه، 1996).

ويشير نيتشه سيكولوجيا إلى القوي حين ينتشي بلذة السيطرة على الضعيف (في ممارسته الحرة)، تلك المتعة التي تدفعه للمخاطرة حدّ الفناء، من أجل تحقيق المزيد من القوة. "بما أنّ الأضعف يستسلم للأقوى، والأقوى يتمتع بسيادته على هذا الأضعف، فإن الأقوى يعرّض نفسه للخطر في سبيل قوته، فهو يجازف بحياته مستهدفاً للأخطار" (نيتشه، 1996).

هنا تتوازن الإرادتان في نظر نيتشه، إرادة السيطرة، عند السادة، وإرادة البقاء، عند العبيد، كنتيجة طبيعية لإرادة القوة. "فليست إرادة الخير من جوهر الأشياء وطبيعة الوجود، وإنما هي نتيجة لإرادة السيطرة عند وحدة من الوحدات الاجتماعية مثل (السادة) بإزاء وحدة أخرى، أو إرادة البقاء (كما عند العبيد) وتخضعها" (نيتشه، 1965).

عدو الإرادة:

وللإرادة عدو يصعب قهره هو الزمن متمثلاً في الماضي وثقل تراثه من جهة، والواقع وإفرازاته من جهة أخرى.

فتأثير الماضي المستند إلى الدين والميتافيزيقيا وما أدى إليه من عدمية، وكذلك التمترس وراء كل ما أتى به الواقع، من ثورة علمية وفكرية، على الرغم من تطورها ونبذها للدين فقد تحولت تلك الأفكار إلى ما يشبه أدياناً جديدة أوجدت مناخات لظهور الإنسان الأخير، مما يعوق ظهور الأبرمنش. إذ "لا مخلص إلا الإرادة، لأن الإرادة مبدعة، هذا هو تعليمي. وعلى الإنسان أن يتعلم ليبدع، وعليه أن يأخذ عني، دون سواي، الطريقة التي تبلغه العلم. من له أذنان فليسمع" (نيتشه، د.ت).

3- العود الأبدي:

شغلت قضيّة تحدّي الزمن عبر الاعتقاد بعودة أخرى لإنسانه ومجرياته وأحداثه بال الفكر الإنساني منذ الأزل، وتجلّت بصور ميتافيزيقية ودينية مستمدة من الميثيولوجيا، لكنها عند نيتشه، تتخذ شكلاً غرائبياً عندما يحاول تطويعها وفق منظومته الفكريّة المستندة إلى العلم وجينيالوجيا الأخلاق النابذين لكل ما هو غيبي، ليخرج بتركيبة العود الأبديّ المثيرة للجدل، تلك الفكرة التي لمعت في ذهن نيتشه عندما تبدّت له علاقة الإرادة بالزمان بوصفها علاقة عداء مستمر. ذلك أن الزمان لا يعود إلى الوراء، مما يثير غضب الإرادة، ويجعلها تنتقم. "وهل انتقام الإرادة إلا عبارة عن كرهها للزمان لأنه أوقع ما لا قبل لها برده... وهكذا تصبح الإرادة المنقذة قوة شريرة، تصب جام غضبها على كل قانع بعجزها، عن الرجوع إلى ما فات" (نيتشه، 1996)، إلا أنّ عداء الإرادة عداء إيجابيّ يخلق بحسب نيتشه إبداعاً وتطوراً، يتخذ صفة الديمومة والعود الأبديّ. فيصبح الزوال ضرورة من ضرورات الخلق المبدع. لذا لا نبرح أن نجد نيتشه يؤكّد في أكثر من موقع على فكرة أنّ "كل شيء يزول، وكل شيء يستحق الزوال، إن العدل نفسه يقضي بأن يفترس الزمان أبناءه.." (نيتشه، 1996). لكن التكرار المرتبط بالزوال ليس عشوائياً بل إنه محتكم إلى "قول الإرادة: إنني أنا أردت هذا، ثم تقول: وهذا ما أريده الآن، وسأريده غدا" (نيتشه، 1996).

إن عجلة الزوال والظهور المحتكمة للإرادة تسير وفق المنظومة الغرائبية التي أسماها نيتشه (العود الأبديّ). وفيه وجد الحلّ الأمثل لإشكالية الزمان الذي يمضي، بلا عودة، للوراء، والذي اعتبرته الإرادة عدواً لها. "ما غريب عنّا تعاليمك يا زارا، فأنت تقول بأنّ جميع الأشياء تعود أبداً ونحن معها عائدون، وبأننا وجدنا من قبل مراراً لا عداد لها ومعنا جميع الأشياء أيضا" (نيتشه، 1996). وعلى الرغم من أنّ العود الأبديّ، لدى نيتشه، ليس ميتافيزيقيّاً، إلا أنّه لم يأخذ شكل البرهان الفلسفي المحكم، بل اتخذ شكلاً يشبه النبوءة، في محاولة لكشف غموض الزمن السرمديّ. فالزمن الذي يعتقد به نيتشه دائري فحسب، لذا تجده يقول: "إن كل اتجاه على خط مستقيم إنما هو اتجاه مكذوب، فالحقيقة منحرفة، لأن الزمان نفسه خط مستدير، أوله وآخره" (نيتشه، 1996).

ومن ثمّ فإنّ الوجود ليس صيرورة مستمرة لا نهائية، وإنما تأتي فترة هي ما يسمّيه نيتشه باسم "السّنة الكبرى" للصّيرورة، عندها تنتهي دورة الصيرورة، لتبدأ دورة جديدة. وهذه الدورة الجديدة تأتي عليها سنتها الكبرى فتنتهي من جديد. "وهكذا زمان الوجود مقسم إلى دورات، وكل دورة من هذه الدورات تكرار تام للدورة السابقة عليها، ولا اختلاف مطلقاً بين الواحدة والأخرى، فكأن الوجود كله صورة واحدة تتكرر بلا انقطاع في الزمان اللانهائي" (بدوي، 1965).

يقول نيتشه: "كل شيء يموت وكل شيء يعود، فتنوّر أزهاره، ودوائر الوجود لا انتهاء لها" (نيتشه، 1996).

إذن فالصيرورة، عند نيتشه، يعاد إنتاجها ضمن محددات السنة الكبرى، لا تأخذ مفهوم اليوم الآخر، في البعث المثيلوجي، لأنها لا تعني التوقف حسب، بل إنه توقف من أجل دورة حياة وصيرورة جديدتين، تبدأ من حيث انتهت الدورة السابقة للصيرورة. فهي كالساعة الرملية التي يعاد قلبها كلما انتهت، حيث تتكرر دورة الحياة كلما انتهت.

"أنت تقول بالسنة العظمى المتكررة، وهي كالساعة الرملية، تنقلب كلما فرغ أعلاها، ليعود أدناها إلى الانصباب مجدداً، وهكذا تتشابه السنوات كلها بإجمالها وتفاصيلها، كما نعود نحن متشابهين لأنفسنا إجمالا وتفصيلا، في هذه السنة العظمى" (نيتشه، 1996).

يشير نيتشه إلى أنّ "هراقليطس" هو الأبّ الشرعي لفكرة العود الأبديّ، وإلى أنه "كان يؤمن بتكرار دوري لنهاية العالم، وبانبثاق متجدد أبداً لعالم آخر.." (نيتشه، 2005).

لكن نيتشه يتجاوز هذا المفهوم للعود الأبديّ، بما يتواءم مع حاضره، عندما يربطه بمفهوميه الجديدين الآخرين، إرادة القوة، و"الأوبرمنش". فللإرادة دور أساسي في دائرة العود

الأبديّ، تظهر في كل حديث له عن العود الأبديّ:

"أفليس علينا أن نعود لندفع مراراً وتكراراً على المسلك الآخر الذاهب أمامنا متصاعداً مستطيلاً مروعاً؟ أفما لزم علينا أن نعود تكراراً وأبداً" (نيتشه، 1996).

والعود الأبديّ لدى نيتشه ليس للحساب والعقاب بل لتجديد حياة أرضيّة مفعمة بالأمل والتفاؤل مقرونة بالقوة والإرادة. "كل الأحياء تتقدم إلى مسرح الوجود فتتصافح، وتضحك وتنسحب ثم تعود. الكلّ يذهب، والكلّ يرجع، وعجلة الكون تدور إلى الأبد" (نيتشه، 1996).

العود غير الحميد:

يقوم نيتشه هنا بدور المبشّر والنذير، في عملية تكريس فكرة العود الأبديّ التي ستحمل في طياتها قدوم الإنسان الأعلى. ويحدّث نفسه موكلاً إياها هذا العبء الكبير: "فما أنت إلا النبي المعلن تكرار عودة الأشياء إلى الأبد. وهذا ما قدّر عليك القيام به منذ الآن، أن تكون أوّل من ينشر هذه التعاليم، وكفاك بهذا العمل علة وإخطاراً" (نيتشه، 1996).

ويحذر نيتشه من إمكانية عودة الإنسان الضعيف للأرض، مما يدفع اليأس والإحباط في النفوس من فكرة العود الأبديّ، فيقول: "وا أسفاه إن الإنسان سيعود، سيعود الإنسان الصغير دوراً فدوراً إلى الأبد... يا للشقاء في أن يعود الصغار أبداً، إن هذا ما يرهقني من الوجود" (نيتشه، 1996).

لكنه سرعان ما يتجاوز ذلك التشاؤم عندما يؤكد على إرادة الإنسان وعزمه على إعادة نماذج البطولة، من الإنسان الماضي، لا ديدان الأرض، كما وصفهم نيتشه، في أكثر من موقع.

إن السّرمدية التي تكرّسها فكرة العود الأبديّ تدفع بالإنسان إلى القيام بأفعال، تستحق الخلود والتكرار، مما يوفر شروط ظهور الإنسان الأعلى، وهذا ما دعا إليه نيتشه: تكرار القوي المتمثل بزرادشت، رمز الإنسان الأعلى المنتظر: "أريد أن أتحول شمساً وإرادة لا تتزعزع، فأكون مهيأ للاندثار في أفق الانتصار. هذا ما أطمح إليه. فلنضع حدّا يا إرادتي لكل الصغائر، أنت مقصدي، فاحفظيني للظفر الأعظم" (نيتشه، 1996)... لكنّه يقرّ بإمكانية عودة الأشياء كما هي بشيء من التناقض بين موقفه الثوري وبين استسلامه لواقع هذه العودة الغريبة: "سأعود بعودة هذه الشمس وهذه الأرض، ومعي هذا النسر وهذا الأفعوان، سأعود لا لحياة جديدة، ولا لحياة أفضل، ولا لحياة مشابهة، بل إنّني سأعود أبداً إلى هذه الحياة بعينها إجمالاً وتفصيلاً، فأقول أيضاً بعودة جميع الأشياء تكراراً وأبداً، فأنا أتوارى منذراً وبشيراً" (نيتشه، 1996).

القيم الجديدة:

لم يضع نيتشه دستوراً قيمياً ثابتاً وواضحاً، لكنّه حاول أن يرسي آيديولوجيا قيمية تستند إلى الحفر الجينيالوجي، والذي من شأنه زعزعة الجذور الثابتة، ونفي المسلمات، ونقل الفلسفة من علبائها لتنشغل بقضايا أرضية، محورها الإنسان عقلاً وجسداً، واعتبر أنّ القيم الوعظية ضرب من ضروب الكسل والإمعان في الخدر، لذا تجده يقول: "وما كانت الحكمة في عرف حكماء المنابر، وقد نالوا الإعجاب والثناء، إلا قاعدة نوم لا تقلقه الأحلام. إنهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة" (نيتشه، 1996).

الحياة:

انطلقت نظرته إلى الحياة وفق أسس مادية فزيولوجية تحتفي بالجسد وغرائزه واحتياجاته المادية أولاً، ومن هنا يعتبر نيتشه: "أن مهاجمة النزوات من الجذر، تعني مهاجمة الحياة من الجذر، إن "Praxis" (تطبيق الكنيسة العملي) الكنيسة معاد للحياة" (نيتشه، 1996). ومن هنا يربط نيتشه الدين بالعدمية إذ "ينتهي أمر الحياة حينما تبدأ مملكة الرب" (نيتشه، 1996)، فقتل الحياة يبدأ منذ التجريد المجحف للانسان من احتياجاته الفطرية. "الشهوة أعظم لذّة ترمز إلى السّعادة والأمل الأسمى في الحياة" (نيتشه، 1996)، ذلك أن نيتشه يعتبر الغرائز والشهوات ضرورة لتعزيز الإنسان القوي الظافر بأسباب الحياة وهو أيضاً لا يعترف إلا بالحياة المحفوفة بالقوة والعظمة والتي تتحقق بإرادة القوة فقط.

التأويل:

يعد نيتشه أنّ الحقيقة تتمثل في مجموعة من التأويلات بل إنها جمهرة من الاستعارات والكنايات. وفي كتابه "هكذا تكلّم

زرادشت" تجلت لنا فلسفته عبر رموز وإشارات ودلالات كالطفل والجمل والأسد التي تمثل دورة الحياة ... كما اشتملت على رموز كرمز المرأة التي قصد بها الحياة، وغيرها من الرموز.

"وعلى الرغم من أننا نلمس تناقضاً في فكر نيتشه إلاّ أنّ قراءته تولد الشعور أن هناك ترابطات عميقة مستترة بين هذه الأفكار. لكن اكتشافها أيضاً يستلزم التأويل، بل عدداً من التأويلات، لأنه ليس هناك تأويل وحيد يمكن أن ينسج كل هذه الأفكار في نسيج واحد موحد" (غصيب، 2012).

وإذا كان التأويل عنصراً أساسياً من عناصر الأدب، فإن لدى نيتشه فلسفة خاصة وغرائبية تستلزم البحث المتواصل، إذ إنّ نيتشه لم يكن فيلسوفاً بالمعنى السائد للكلمة، بل إنّه "عنى بما يسميه الألمان الروح geist، أيّ بالفلسفة والدين والأدب والموسيقى والفن وعلم النفس وتاريخ العلم" (غصيب، 2012). ولذلك فإن قراءة نيتشه تحتاج إلى رؤية تأويلية ثاقبة من أجل محاولة الوقوف على المعنى المضمر في نصوصه... وإضافة إلى ذلك أجد إن فلسفة التأويل لدى نيتشه أخذت طابعاً ثورياً هو جزء من الثورة الجينيالوجية الأخلاقية العارمة... فالتأويل بعد تجرّده من الميتافيزيقيا والقيم العليا أصبح متحرراً من أحادية المعنى أو الثبات، وكذلك أرى أن فوكو ينحاز إلى موقف نيتشه من التأويل إلى حدّ كبير معرباً عن استنكاره لوجود تأويلات ثابتة لنص معين، لغوياً كان أم غير لغوي... ففي معرض حديثه عن تقنيات التفسير في المقدمة التي وضعها لكتاب نيتشه "الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي"، يؤكد فوكو أنّ ما يمكن قوله حول تاريخ تقنيات التفسير هو: "إنّ اللغة، على الأقل في الثقافات الهندو– أوروبية، قد ولدت دائماً نوعين من الشكوك: أولاً: الشّك في أنّ اللغة لا تقول فعلاً ما تقول. فمن المحتمل ألا يكون المعنى الذي نفهمه، والذي يبرز مباشرة، سوى معنى ناقص يحمي، يختزن أو يؤدي، بالرغم من كل شيء، إلى معنى آخر، وبذلك يكون هذا المعنى الآخر هو في نفس الوقت المعنى الأقوى، المعنى "التحتي" – حدّ تعبير فوكو–...

من جهة أخرى يرى فوكو أنّ اللغة ذاتها هي التي تولّد هذا الشكّ الآخر لأنها تتجاوز شكلها الشفهيّ الخالص، ويعتقد أنّ ثمّة أشياء أخرى في العالم تتكلم مع أنها ليست لغة بالمفهوم الشفوي للغة، ويقصد بذلك ما تبثه الطبيعة من تعبيرات مثل هدير البحر، وحفيف الأشجار، وأصوات الحيوانات، والوجوه، والأقنعة...، " كل هذه الأشياء قد تتكلم، من المحتمل أن ثمة لغة متمفصلة بطريقة لا شفهية" (نيتشه، 2005).

ومن ثمّ نرى أنّ فلسفة نيتشه ونظرته لكل مفردات الحياة من وجهة نظر تأويلية تحتمل تعدد المعاني والمضامين كما تحتمل تغيرها الدائم.

الفضيلة:

لا يحبّ نيتشه سوى الفضائل الأرضية التي لا يمكن لها أن تقصي شهوات الإنسان وغرائزه التي نبذتها الأديان لاسيما المسيحية. فالفضائل مرتبطة بالجسد البشري واحتياجاته وتستمد قيمتها منه، لذا تجده كثيراً ما يخاطب الإنسان قائلاً: "وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها، لأنك وضعت في هذه الشهوات أسمى مقاصدك، فتحولت فيك إلى فضائل وملذات، هي منك ولك" (نيتشه، 1996). وبالمقابل، يرفض نيتشه ما يدعى بالفضائل السماوية، ويسخر من أصحابها، فهي فضائل مقرونة بالترغيب والترهيب والثواب والعقاب، وتلك فضائل مشروطة لا قيمة لها، لذا يخاطب نيتشه أصحاب تلك الفضائل قائلاً: "إنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم، وتطالبون بالجزاء أيّها الفضلاء الطامحين إلى امتلاك أماكن في السماء، بدلاً من أماكن في الأرض، وإلى الظفر بالأبدية، بدلاً من الدهر الزائل (نيتشه، 1996). وتراه يتوجه إليهم بنظرة المحلل النفسي ليكشف زيفهم، ويعرّي دواخلهم وادعاءاتهم التي لم تتمكن فعلاً من مقاومة الغرائز الطاغية على سلوكهم، فيقول: "ما أنا بالمشير عليكم بالعفّة، لأنّها إذا كانت فضيلة في البعض، فإنها لتكاد تكون رذيله في الآخرين. ولعل هؤلاء يمسكون عن التمتع، غير أنّ شبقهم يتجلى في كل حركة من حركاتهم" (نيتشه، 1996). إذن هم مجرد كاذبون مخادعون، يدّعون العفة بالتّجرد المزيف من الشهوات التي تسكن نفوسهم. فلماذا يتنكرون لها بداعي الفضيلة؟.

- **الاشتراكية:**

ينكر نيتشه إمكانية إقامة عدل على الأرض، ويهاجم من ينصّبون أنفسهم مسؤولين عن حقوق الناس وحرياتهم. "إننا لا نأمل أن تتأسس مملكة العدل والوئام على الأرض" (نيتشه، 1993). ويعزو ذلك إلى أنّ الفروق البيولوجية والفزيولوجية

والطبقية بين الناس لا يمكن إلغاؤها، وبالتالي نجده يقف موقفاً سلبياً من الإشتراكيين. "لا أريد أن أحسب من هؤلاء المنادين بالمساواة، لأن العدالة علمتني: (أن لا مساواة بين الناس) وأنه من الواجب إلا يتساووا، وليس لي أن أقول بغير هذا المبدأ، وإلا فإن محبتي للإنسان تصبح إدعاء" (نيتشه، 1996). وهو بالتالي يرفض سيطرة الأحزاب والدولة والقانون على الإنسان بوصفها مطلقات جديدة تحطّ من قيمة الإنسان وتضعفه، وكذلك الديمقراطية التي تزجّه في ثقافة القطيع. فالديمقراطية في نظره: "صورة انحطاط الإنسان، صورة تصغّره،... وتحطّ من قيمته" (نيتشه، 1995).

من هنا أعتقد أن نيتشه لم يدعُ إلى أي نوع من التكتل البشري حول فكرة عنصرية، على صعيديّ الدين أو العرق، أو حتى الفكر والأيديولوجيا والتي من شأنها أن تصنع كيانات حكومية هي مجرد أصنام جديدة في نظره.

الحرب:

منذ انخراطه بالجندية والحرب لا تفارق خياله التّواق إلى العظمة التي لا تتحقق في نظره إلا بالصّراع الدائم، هذا الصّراع الذي تحققه الحرب حيث الغلبة والرفعة والنصر، يقول: "إن سرّ تحصيل الخصوبة الكبرى ومتعة الوجود الكبرى، صدقوني، يتطلب أن نحيا بطريقة خطرة، شيّدوا مدنكم عند سفح بركان فيزوف، أرسلوا سفنكم إلى بحار بكر، عيشوا في حالة حرب مع أشباهكم ومع أنفسكم، كونوا قطّاع طرق وفاتحين ما لم تستطيعوا أن تكونوا مهيمنين وملاكين" (نيتشه، 1993).

وأرى أنّ نيتشه يبالغ عند وصوله إلى هذا الحدّ من التطرف والانحياز إلى العظمة التي تحققها الحرب، فهو يرى أنّ الصراع الدائم، هو الذي يكفل ديمومة القوة والحياة. لذا لا ينفك نيتشه عن دفع الإنسان نحو خوض المعارك، ربما لأنّه عرف الحرب ومتعة الغلبة ومعنى القتال، ولم يشهدها عن بعد، بل انخرط فيها، مما يعني صدقه في احتفائه بفكرة الحرب إذ لم يغادر الجنديّة إلا مرغماً بسبب وضعه الصحي، لكنه ظلّ مسكوناً بها لينسج فلسفة القوة بكافة أشكالها العقلية والروحية والمادية. إنها القوة المستمدة من نبلاء الإغريق والرومان، ومؤخراً بسمارك، ونابليون، وقادة الحروب العظماء. "وإذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً، فاعلم يا أخي أنها شروط لا بدّ منها،... تبصّر، ترَ أنّ كلاً من فضائلك، تطمح إلى المقام الأسمى، وتطمح في الاستعلاء على جميع أفكارك، لتستعبدها، وتحصر بها وحدها، كل ما في غضبك وبغضائك وحبّك من قوة" (نيتشه، 1993).

وألحظ أن نيتشه يتطرف كثيراً في حبّه الحرب وإيمانه بها، مما يدفع به أن يجعل منها غاية لا وسيلة . "تقولون إنّ الغاية... المثلى تبرر الحرب، أما أنا فأقول لكم: أنّ الحرب المثلى تبرر كل غاية، فقد أتت الحروب والإقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس، وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا إقدامكم لا إشفاقكم" (نيتشه، 1996).

وأجد إنه من المستغرب فعلاً التناقض الذي يضعنا نيتشه إزاءه حين يعلي من شأن الحرب إلى هذا الحدّ، في الوقت الذي تراه يقول: "إن من يدير العالم إنما هي الأفكار التي تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام" (نيتشه، 1996)، وربما يعود ذلك إلى أنّ نيتشه يجمع بين قلب الشاعر والقسيس وفي ذات الوقت التائر المفكر وذي المرجعية القتالية، التي وضعته في ساحة المعركة حيث قيم الغالب والمغلوب. إذ يقول هو عن نفسه: "إنني في جوهري محارب، إن الهجوم مسألة غريزية فيَّ. "(نيتشه، 1993). لقد قلت لكم الحق بلا محاباة لأني أحبكم، أيها الأخوة في السلاح. (نيتشه، 1996). فجاء بالقوة بوصفها دستوراً وشريعة من شأنها الارتقاء بالحياة وخلق الإنسان الأعلى.

موقفه من المرأة:

عندما جاء نيتشه بثورته الجينيالوجية ليحطم الأصنام، وينهض بالحياة بمحاربة العدمية لخلق الظروف المناسبة لولادة الأوبرمنش ونموه وفق مبدأ إرادة القوة، لم يقتصر إنسانه الأعلى على الرجل دون المرأة. بل إنّه وبقدر ما انتقد الرجل الضعيف الخائر وشبهه بدودة الأرض في معرض حديثه عن الرجل الأخير، انتقد كذلك امرأة عصره التي طالها من الضعف ما طال الرجل، فيما يحضّ على الزواج من المرأة القوية بوصف ذلك اشتراطاً من اشتراطات خلق الإنسان الأعلى. لذا تجده يقول "ما الزواج في عرفي سوى اتحاد إرادتين لإيجاد فريد يفوق من كان علّة وجوده، فالزواج حرمة متبادلة ترسو على احترام هذه الإرادة" (نيتشه، 1996).

إذن، النظرة الدونية لم تكن للمرأة بوصفها الفزيولوجي الجنسي وإنما لمكانتها المتحددة بالقوة أو الضعف على الصعد الجسديّة والعقلية والسيكولوجية. ويعبّر نيتشه عن سخطه من الزواج غير المتكافىء فيقول: "أودّ لو تميد الأرض بي عندما أرى رجلاً فاضلاً يتخذ له زوجة حمقاء" (نيتشه، 1996). ويؤكد على فكرته هذه بالتحذير من الحبّ الذي يدفع باتجاه الزواج غير المتكافىء، كزواج بعض العظماء من الخادمات والضعيفات وكذلك زواج العظيمات من الرجال الضعفاء بداعي الحبّ، بينما يحضّ باستمرار على الزواج المثمر ويخاطب المتفوقين: "أيها المبدعون... إذا كنت تشعر بشوقك يندفع كالسّهم نحو الإنسان المتفوق فإنني أقدس إرادتك وأقدس زواجك" (نيتشه، 1996).

وانتقد نيتشه أيضاً المرأة المسترجلة كما الضعيفة، فيما قدّر المرأة القوية واحترمها في مواطن أخرى. فالمرأة التي طعنها نيتشه في الصميم هي المرأة المسترجلة التي تريد أن تزاحم الرجل في علمه وجهاده واقتصاده. أما غير هذه المرأة فهو مقدّر إياها، محترم لفضلها مقدس لمعنى المرأة فيها. ولقد كان له منهن صديقات وصاحبات (ليشتانبرجر، 1954)، حتى أن نيتشه يعزو استرجال المرأة إلى ضعف الرجل فيقول: "هنا تسترجل النساء لقلّة ما يتصف بالرجولة الرجال، وما يحرّر المرأة من خلالها ليخلق فيها المرأة الحقيقية إلا من تكاملت الرجولة فيه" (ليشتانبرجر، 1954).

وأرى هنا أنّ قوة المرأة تختلف عن قوة الرجل بالنسبة لنيتشه، ولا ننسى أنّ علاقة نيتشه بأمّه كانت حميمية، وليس كشبنهور الذي قاطع أمّه زهاء العشرين عاماً، وكذلك علاقة نيتشه بأخته التي اعتنت به أثناء مرضه حتى وفاته.

إذن لم يكون موقف نيتشه عدائياً للمرأة بوصفها امرأة، وشهدت بذلك أخته في مذكراتها حين قالت: "إن نيتشه تذوق في أيام نكبته من عطف المرأة ما لم ينعم بمثله إلا قليل، فهو صاحب مثل أعلى في الحبّ كما في الصداقة" (ليشتانبرجر، 1954).

وأرى أنّ نيتشه عندما هاجم المرأة بقوله إنّها ليست أهلاً للصداقة، لم يقصد أيّ امرأة وإنما المرأة التي هي نتاج بيئة غير سوية، شارك في صنعها بل وتسبب بإنتاجها الرجل بسبب ظلمه لها. "لقد مرت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبَدة أو مستعبدة فهي لم تزل غير أهل للصداقة، فالمرأة لا تعرف غير الحب" (نيتشه، 1996). وهنا يستدرك نيتشه قوله بإشراك الرجل في نفس المثلب: فالرجال أيضاً ليسوا أهلا للصداقة إلا حسب اشتراطات نيتشه الغرائبية إذ يقول: "ليست المرأة أهلا للصداقة، ولكن ليقل لي الرجال من هو أهل للصداقة بينهم؟ إن روحكم وخساستها تستحق اللّعنة أيها الرجال، لأن ما تبذلونه لأصدقائكم يمكنني أن أبذله لأعدائي دون أن أزداد فقراً" (نيتشه، 1996).

أما العبارة الشهيرة التي اقتطعها الكثير من النقاد من سياقها ليشهروها سيفاً في وجه نيتشه، وموقفه من المرأة: "إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط"، فعلينا أن ندرك أنها قيلت في حوار رمزي، جرى بين زرادشت وبين امرأة عجوز، وفي هذا الحوار اسخدم نيتشة المرأة بوصفها رمزاً للحياة، وأي تعظيم للمرأة أكثر من أن يماهي بينها وبين الحياة ويجسد الحياة برمتها برمز المرأة؟

إذ تجده في موطن آخر يشير إلى أهمية بل وأولوية المرأة في صنع الإنسان المتفوق بوصفها المنتجة والخالقة للحياة.

ومن هنا أرى إن نيتشه يجعل من المرأة أساساً. فالمرأة القوية هي التي تستطيع اختيار ابنها القادم من خلال اختيارها لأبٍ قويٍ له. أما الحبّ الذي يعترف به، فهو لقاء المرأة العظيمة بالرجل العظيم " ليتوهج الكوكب السنيّ في حبّك أيتها المرأة، وليهتف شوقا قائلاً: لأضعن للعالم الإنسان المتفوق" (نيتشه، 1996).

ذلك كله يدل على ضرورة التأويل لفلسفة نيتشه عبر النظر إلى مجمل نتاجه الأدبي الفلسفي دون الوقوف عند جمل مقتطعة من سياقها العام.

الأدب والفن:

أكّد نيتشه العلاقة الوطيدة بين الأدب والفلسفة كما دعا إلى عدم الإيغال في الفكر على حساب الوجدان الذي يمثله الأدب، فهاجم طغيان النظرة العلمية على الأدب والتي بدأت منذ سقراط. إذ يقرن سقراط بين العقل والجمال، وتلك نظرة أبولونية، في مواجهة الديونيزية. فأبولو هو إله العقل والنظام والجمال. فيما ديونيزوس إله الصخب والموسيقى والنشوة والقوة. إذ تراه يقول: "لقد قمنا بتناول الأبولوني ونقيضه الديونيزي كقوتين نفيستين تنبعثان من الطبيعة نفسها" (نيتشه، 2008)، أي أننا نجد فيهما

الغرائز الفنية للطبيعة وما يشبعها بشكل مباشر... من هنا شكك سقراط في قيمة الفن والتراجيديا لعدم احتكامهما لشروط العقل والمنطق والجدل. وتأثر في ذلك تلميذه أفلاطون في كتابه الجمهورية الذي سخر من الفنّ أيضاً، واعتبره غير نافع لأنه يحاكي الصور الظاهرية للأشياء وبالتالي طرد الشعراء من جمهوريته. والمثير أيضاً أنّه أحرق جميع أشعاره ليرضي أستاذه سقراط.

فنيتشه إذن ينسب مفهوم الروح العلمية إلى سقراط، والتي تتمثل في معرفة الطبيعة وحقائقها، وفي هذه المعرفة تكمن فضيلة الخلاص الكوني. ومن ثمّ تتشكل الروح العلمية من ركائزها الأساسية بالنسبة لسقراط والمتمثلة في المعرفة، والحقيقة، والفضيلة. إذ يرى سقراط، أننا لا نذنب إلا عن جهل والإنسان الفاضل سعيد (نيتشه، 2008). وبالتالي كانت المعرفة والبحث عن الحقيقة أوّل أهدافه، وذلك من خلال العقل والجدل والوعي، وألدّ أعداء الإنسان هو الجهل. وسقراط يرى أنّ المعرفة والوصول إلى الحقيقة أمران ممكنان، ويقومان على مبدأ السببية للوصول إلى الحقائق الأبدية، ويربط ذلك بالجمال. ويشير نيتشه في مولد التراجيديا إلى موقف سقراط الذي يرى أنّ أيّ عمل لا يكون جميلاً، إلا إذا خضع للعقل. وعلى ذلك يرى نيتشه أنّ الشاعر التراجيدي "أوربيديوس" تأثر بسقراط واعتبر أنّ كل شيء يجب أن يكون واعياً حتى يكون جميلاً. إذا فالتراجيديا عنده تقوم على الوعي والعقل والنظام، وعلى الواقع اليومي المعيش. ويجد نيتشه أنّ سقراط هو الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وأوربيديوس أنزلها كذلك، فصارت التراجيديا تعالج قضايا الإنسان العادي وهمومه اليومية الاجتماعية والسياسية... وابتعدت عن عظمتها الأسطورية مما قاد إلى موتها.

وكذلك يعتبر نيتشه أنّ المسيحية أيضاً ضدّ التراجيديا كما الروح العلمية تماماً، ولكن من زاوية أنها تنظر للوجود بوصفه خطيئة، وقد أكّدت ضرورة الألم، و بالتالي أوجدت قيم الانحطاط المتمثلة في التكفير عن الذنب وكذلك القربان.

وعلى الرغم مما سبق أرى أنّ نيتشه يجمع بين المسيحية والديونيزية لاشتراكهما بقيم الألم والاستشهاد والمعاناة، بينما يختلفان جذرياً في قيم الفرح والنشوة وطلب الحياة، ومن ثمّ، يكون الفرق بين التراجيديا والمسيحيّة هو أنّ العمل التراجيدي هو الشّكل الجمالي للفرح والحياة، وليس الشكل الناتج عن الخضوع المسيحي والشفقة والعدميّة.

ويذهب نيتشه إلى أنّ التعارض بين الأبولونية والديونيزية ليس كبيراً وعميقاً كما هو بين الديونيزية من جهة والمسيحية أو السقراطية الداعية إلى العلم. فيقول: "وها هو العلم يجري دون توقف، يحثه في ذلك وهمه القوي، حتى حدوده التي يتحطم عليها تفاؤله المخبوء في جوهر المنطق" (نيتشه، 2008).

من هنا يجد نيتشه أنّ الروح العلمية باحتكامها إلى مبادىء العقل والوعي والمنطق.. وكذلك المسيحية ومبادؤها الداعية إلى نفي الحياة، عوامل أدّت إلى موت التراجيديا اليونانية، وانحطاط الحضارة اليونانية وكذلك الأوروبية الحديثة... وللتخلص من هذا الانحطاط لا بد من استعادة الحياة الديونيزية، والإنسان التراجيدي المتفوق ومثاله زارادشت.

ومن هنا نلحظ أنّ موقف نيتشه من الأدب والفن يتجلى في رائعته الأولى المتمثلة في كتاب مولد التراجيديا من روح الموسيقى (1872م). إذ يعتبر هذا الكتاب القنبلة الأولى التي فجرها في وجه المفاهيم الفلسفيّة الأوروبية لاسيما فيما يتعلق بالفن والأدب، وذلك عبر نقده للتراجيديا جامعاً بين خبرته الأكاديمية في العمل الفيلولوجي وكذلك التأويل الفلسفي بوصفه مرجعية للنقد. ولدى نيتشه يكون المنطلق الأساسي في هذا الموضع هو الأسس الفنية والموسيقية على وجه الخصوص، وليس من المستغرب ذلك. وقد كان نيتشه موسيقاراً بارعاً إلى جانب فلسفته ولغته الشعرية، وبالتالي وجه خطابه النقديّ انطلاقاً من إيمانه بالفن، آملاً بعظمة صديقه فاغنر والذي توسّم فيه إعادة الفن العظيم والموسيقى العظيمة التي ستولد من روحها التراجيديا العظيمة. لذا يهديه كتابه مولد التراجيديا، ويعظّم من شأنه في مقدمة هذا الكتاب بشكل صريح وواضح فيقول: "ولتعليم هؤلاء الناس الجديّين، أعلن قناعتي بأن الفن هو مهمّة الحياة الأسمى ونشاطها الميتافيزيقي، وذلك بالمعنى الذي يقصده الرجل الذي أهدي إليه هذا الكتاب، كما للرائد الفذّ الذي سبقني على هذا الدرب" (نيتشه، 2008)، ويقصد شوبنهور.

وفي مولد التراجيديا قدّم نيتشه قراءة تأويلية تختلف تماماً عن الأساليب التأريخية الكلاسيكية بل باستنهاض مكنونات الأسطورة ومعالجتها بالنقد ومنحها روح العصر من أجل إحيائها، بروح فلسفية فنية.

ويلفت نيتشه إلى عظمة المسرح اليوناني بجميع عناصره

المادية والمعنوية، إذ يشير إلى ذلك التآلف والتناسق الكبيرين بين المكان المتمثل في عظمة المسرح اليوناني وفخامته من جهة، وبين ممثليه الذين يحفظون نصوصاً طويلة جداً مما يتطلب جهوداً جبارة تنمّ عن قدرات مذهلة لأولئك الممثلين من جهة أخرى. وهذا التناسق بين عظمتي الفنان والمسرح، يحاكي تناسق الطبيعة العظيمة... فالممثل يتمثل روح ديونيزوس المتماهي معه حدّ الذوبان فيه. وديونيزوس هو إله النشوة ورمز الانفلات والإسراف في الملذّات الجسدية. إذن فالمحاكاة هي توحّد وانصهار صوفي مع الأصل وخروج صوفي من حدود الجسد ولكن نحو الطبيعة، فهي فضاء يتصالح فيه الأفراد فيما بينهم من جهة ومع الطبيعة من جهة أخرى.

وهكذا نستطيع أن نتلمس الرؤية الفلسفيّة عند نيتشه تجاه الأدب والفن عبر موقفه من التراجيديا، فالمحاكاة في التراجيديا الإغريقية عملية فنية تمنح الإنسان بعديه الأرضي والإلهي أي العقلي والجسدي، في مشهد عظيم يتلاءم وروح نيتشه التائقة إلى كلّ ما هو عظيم.

وكذلك يعطي نيتشه أهمية كبرى للموسيقى الحقيقية. فهي المحور الأساسي في التراجيديا لأنها تعبر عن روح الأشياء ولبّها ولأنها مبتكرة تنفذ إلى الماهيات والأشياء ذاتها، فالموسيقى هي التي تعطي الأسطورة معنى ميتافيزيقياً أكثر إقناعاً، إذ لا تستطيع المشاهد والأحداث تحقيقها بمفردها. وبالموسيقى أيضا تتخلص التراجيديا من العالم الخارجي ويتحرر الجسد.. بدون الأسطورة تفقد كلّ حضارة قوتها الإبداعية الطبيعية السليمة: "وحده الأفق الذي تحدّه الأساطير يضمن حركة الحضارة" (نيتشه، 2008).

ويولي نيتشه الأسطورة أهمية كبيرة في استنهاض الفن العظيم المتكىء على مخيال محمّل بالرموز العظيمة، فلماذا يحتفي بالأسطورة؟

فنيتشه يرى أننا بالأسطورة نستطيع أن نلتقي بالزمن الأول والذي يعتبره عظيماً، عبر حكايات مقدسة شخصياتها آلهة، فهي فعل الآلهة بداية الزمن. إذن هي ما حدث في الزمن الأصلي، أي بمثابة حفر جينيالوجي في تاريخ الإنسان وماضيه. وباستعادتنا لهذا الماضي ننسى الألم، وأهمّ وأقسى ألم هو الموت. إذن التراجيديا في عمقها هي مقاومة للموت.. أو على الأقل يتاح لنا من خلالها أن نختار كيف نموت موتاً كريماً وشريفاً، هو موت العظماء البطولي الذي ينشده نيتشه. فهم يذهبون إلى موت محتّم في مواجهة الآلهة، فيموتون من أجل هدف سامٍ عظيم. فيما ينتقد نيتشه إنسان عصره الذي هجر الأسطورة ولم تعد تشكّل مرجعيته في الفنون والآداب وباقي صروف الحياة فيقول: "لنضع في مقابل ذلك الإنسان التجريدي، الذي ليست الأسطورة دليله والتربية المجردة والقانون المجرد، والدولة المجردة، لنتصور الخيال الفني المتسكع دون قاعدة أو أسطورة وطنية تمسك بزمامه... تلك هي أزمتنا الحديثة التي هي نتيجة السقراطية الهادفة إلى القضاء على كل الأساطير" (نيتشه، 2008).

وبالتالي علّق نيتشه أملاً كبيراً جداً على موسيقى فاجنر، أن تقوم بتلك المهمة، وهذا ما جعله يهديه كتابه مولد التراجيديا. لكنه لم يلبي طموح نيتشه المنشود، فانسلخ عنه وهاجمه في بقية كتبه، لكنه ظلّ متأثر به حتى آخر كتاباته.

ولا يفوتنا الذكر بأن آراء نيتشه في مولد التراجيديا هي باكورة أفكاره تجاه الأدب والفن، وكانت تتسم في بدايتها بالنفس الميتافيزيقي فيما فنّد معظمها فيما بعد وانتقد نفسه وأعاد النظر في الكثير من النظريات التي وضعها في هذا الكتاب. إلا أنه لم يغادر المطالبة الدائمة بالفن الدافع دائما إلى القوة والمحفز على الحياة.

خاتمــة:

مما يثير الدهشة في فلسفة نيتشه الدعوة الدائمة للإنقلاب على الذات وعدم الوقوف عند حدّ معين، وأنها فلسفة مفتوحة على التأويل، وقابلة للتطوير الدائم وفق مبدأي الهدم والبناء. فرغم ما نجده لديه من أنفة وثقة حدّ الشعور بالعظمة، إلا أنّه دعا أتباعه إلى نقده حدّ الثورة عليه ونسفه، ذلك لأنه يؤمن بالصيرورة، فكراً وفلسفة ولغة، بل وقانوناً تحتكم إليها الإرادة الإنسانية، التي من شأنها تحقيق هدفه الأسمى المتمثل بالأبرمنش. "سأذهب وحدي الآن أيّها الصحاب، وأنتم ستذهبون بعدي وحدكم لأنني هكذا أريد... هذه نصيحتي إليكم، ابتعدوا عني، وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا، اخجلوا من انتسابكم إليّ فلقد أكون لكم خادعا" (نيتشه، د.ت). فنيتشه وبكلّ شجاعة وشفافية يرفض أن يتحول إلى صنم جديد كما الأصنام التي دعا إلى تحطيمها وتجاوزها

لتجنب الارتكاسية والتردي والانحطاط المتمثل بالإنسان الأخير.

"تقولون إنكم تؤمنون بزارا، ولكن أيّ أهمية له، تقولون إنكم مؤمنون، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين؟ ما كان أحدهم فتش عن نفسه قبل أن وجدتموني، وهكذا جميع المؤمنين، فليس الإيمان شيئاً عظيماً. لذلك آمركم الآن أن تضيّعوني لتجدوا أنفسكم، ولن أعود إليكم إلا عندما تكونون جحدتموني جميعا" (نيتشه، 1996).

نيتشه يرفض أن يتقمص دور نبيّ أو واعظ أو حتى قائد ثوري لمذهب ما، ذلك لأنه لا يؤمن بالثبات أو بالحقيقة التي تقف عند حدّ معين. بل إن نيتشه يدفع بالإنسان أن يدرك حجم قدراته التي تجعل منه إله أرضه والقادر على التحكم في مقدرات كونه دون الاستناد إلى قوة غيبية مزعومة. يقول نيتشه: "إنّ مهمة حياتي أن أعدّ للإنسانية لحظة للوعي الذاتي الرائع، أوج ظهيرة عظيمة، تحدّق للوراء وللأمام معاً، عندما تبزغ من جبروت ما هو عرضيّ، ومن الكهانة، ولأول مرّة تطرح السّبب والمكان فيما يتعلق بالإنسانية ككل، وهذه المهمة للحياة نتيجة ضرورية" (نيتشه، د.ت).

وعلى هذا الأساس استطاع نيتشه أن يشكل ثورة على الأسس، التي اتكأت عليها المفاهيم الفلسفيّة الأدبية والفنية والاجتماعية والسياسية... لتكون دائماً تحت طائلة النقد والمراجعة الدائمين.

وأقول: إنّ ثمّة من تأثر بنيتشه سلبياً، بعد أن أوّله بطريقته، فجعل من فلسفته ذريعة لعبثية وتسلط وجبروت ربما لم يناد بها نيتشه نفسه. وهناك من استخدم فلسفة نيتشه لأغراض سياسية، نفّذ من خلالها أبشع مظهر من مظاهر الديكتاتورية والقوة المتسلطة، والتي كانت إحدى المآخذ على فلسفته. فهتلر مثلا تبنى فلسفة نيتشه حسب تأويل أخته "إلزبث" اللاسامية، والذي تبين أنّه كان تأويلاً منقوصاً جداً ومشوهاً لفلسفة نيتشه، إنّ النازية التي نادى بها هتلر كانت تنطلق من احتمالين: أحدهما أنّه لم يفهم فلسفة نيتشه جيداً فسارع إلى تحقيق الصورة الذهنية التي تشكّلت لديه حول القوة، فكانت غير تلك التي أرادها نيتشه، والثانية أنّه قصد استخدام فلسفة نيتشه وحرفها عن مسارها لتبرير الوحشية التي اكتنفت السياسة التي نُهجت لتأسيس الدولة القوية المزعومة.

كما احتفى نيتشه بالفن أساساً لمنطلقات الحياة لكنّه أراده فناً عظيماً. لذا نبذ الفن الذي يبعث الفتور والحزن والضعف، ونادى بالفنّ الذي يدفع بالقوة والعظمة. ولهذا ثار على أستاذه الموسيقي فاغنر كما اعتاد أن يثور على كل شيء. فهو الدّاعي دائماً إلى ضرورة الانقلاب على الذات نحو تطور مستمر إلى الأعلى متوج بالعظمة والقوة من أجل تحقيق السوبرمان المنشود. ذلك النقد الذي دفعه أن يدعو أصحابه ومريديه أن يكفروا به حتى لا يتحول الى صنم جديد.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

نيتشه، فريدريك، 1996، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة: فيليكس فارس، بيروت: المكتبة الثقافية.

نيتشه، فريدريك، 2008، **مولد التراجيديا**، ترجمة شاهر حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية.

نيتشه، فريدريك، 2005، **الفلسفة في العصر المأساوي الإغرقي**، تعريب سهيل القش، تقديم، ميشيل فوكو، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، لبنان.

نيتشه، 2006، **جينيالوجيا الأخلاق**، ترجمة: محمد الناجي، الدار البيضاء: افريقيا الشرق.

نيتشه، فريدريك، 1995، **ما وراء الخير والشر**، ترجمة جيزيلا فالور الحجار، بيروت: دار غروب.

نيتشه، فريدريك، 1981، **أصل الأخلاق وفصلها**، ترجمة حسن القبيسي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

نيتشه، فريديريك، 2001، **العلم الجذل**، ترجمة سعاد حرب، دار المنتخب العربي لدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1.

نيتشه، فريدريك، 2005م، **هذا الإنسان**، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، بيروت: دار التنوير، ط1.

نيتشه، 1993م، **العلم المرح**، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، الدار البيضاء: افريقيا الشرق.

نيتشه، 1999، **ما وراء الخير والشر**، الإنسان، يطمح إلى السلطان لا إلى السعادة.

نيتشه، فريدريك، 1996م، **أفول الأصنام**، ترجمة حسان بورقية، محمد ناجي، الدار البيضاء: افريقيا الشرق.

نيتشه، فريدريك، **مولد التراجيديا من روح الموسيقا**، ترجمة محمد الناجي.
نيتشه، 2005، **عدو المسيح**، ترجمة جورج ميخائيل ديب، دار الحوار.
دولوز، جيل، 1998م، **نيتشه**، ترجمة، أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
الشابي، نور الدين، 2005، **نيتشه ونقد الحداثة**، القيروان: دار المعرفة للنشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
غصيب، هشام، ملاحظات حول فلسفة نيتشه، **الحوار المتمدن**، العدد: 3904 – 2012 / 11 / 7 – 20:30، المحور: الفلسفة، علم النفس، وعلم الاجتماع.
عزيز الحدادي، 2007، **للأشياء رائحتها، لقاء الفيلسوف بالرسام، منشورات ما بعد الحداثة**، فاس، ط1.
جيل دولوز، 2001، **نيتشه والفلسفة**، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2.
فنك، أويغن، 1974، **فلسفة نيتشه**، ترجمة، الياس بديوي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
ليشتانبرجر، هنري، 1954، **نيتشه**، ترجمة خليل الهنداوي، "نيتشه"، بيروت: دار بيروت.
ولد أباه، السيد، 204، **التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو**، الدار العربية للعلوم، بيروت.
دولوز، جيل 1987، **المعرفة والسلطة: مدخل إلى قراءة فوكو**، ترجمة سالم يفوت، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1.
خاص، جودة، 2013، **المنظور الفلسفي للسلطة عند ميشيل فوكو**، رسالة أكاديمية قدمت للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة الأردنية، إشراف الدكتور وليد العطاري.
زكريا، فؤاد، 1956م، نيتشه، القاهرة: دار المعارف.
طرابيشي، جورج، 1987م، معجم الفلاسفة، بيروت: دار الطليعة.
إمام، عبد الفتاح إمام، 1985م، فلسفة الأخلاق، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
بدوي، عبد الرحمن، 1965م، نيتشه، مصر، مكتبة النهضة المصرية.

المراجع الأجنبية

Nietzsche, Friedriche, The Birth of Tragedy Out of The Spirit of music, translated by Ian Johnston, Nanaimo, British Columbia, Canada.
Nietzsche, The Man and His Philosophy, Hollingdale, R.J.
Jaspers, Reason and Extins, Translated by William Earle, New York, 1957.

A Reading of the Main Bases of Nietzche's Philosophy

*Nahla Aljemzawi**

ABSTRACT

This paper aims at delineating the main features of Friedrich Nietzsche's philosophy, and at illuminating his genealogical revolution, which led to the transvaluation of all values, laying bare the metaphysical, psychological and physiological roots of morality, and preparing the way to eliminating the shackles that have hitherto chained the will to power and fostered nihilism and the denial of life.

Nietzsche's philosophy, his genealogy, and critique of morality, with an emphasis on the Nietzschean concepts of Ubermensch, the will to power, and the ternal recurrence. It also deals with how Nietzsche applied these concepts to the problems of life and death, good and evil, women, literature, music and art.

The paper shows the importance of this shocking philosophy, which had a deep impact on modern Arab thought, and which laid the basis for postmodernism.

Keywords: Nietzsche's, Zarathustra, Ubermensch, the Will to Power, the Ternal Recurrence.

* Phd. Candidate, Department of Philosophy, The University of Jordan.
Received on 4/8/2016 and Accepted for Publication on 26/3/2017.